النقد

كتاب النثر الفنى فى القرن الرابع

تأليف الدكتور زكى مبارك

للاستاذ احمد امين

ان كان أخى « المازنى » قد استطاع بلباقته أن يكتب عن هذا الكتاب مقدمة بلا موضوع ، فلاحاول فى مقالى هذا — للموازنة — أن أكتب عنه موضوعا بلا مقدمة ، وان هو وقف الكلام عند محاولته ان يأخذ الكتاب من المجلد ، فلا أصل تاقطع وأكتب من حين تسلمت الكتاب من المجلد

***

أول مايطالعك من الكتاب شكله وحجمه ، فيعجبك شكله ، ويبهرك حجمه ، وما ظنك بكتاب طبع فى دار الكتب على ورق جميل فى جزأين يقعان فى نحو ثمانمائة صفحة من القطع الكبير ؟

ثم المقدمة ، وفى الحق أنها لم تعجبنى كثيرا ، فقد تحدث المؤلف فيها عن نفسه طويلا ، فالكتاب اول كتاب من نوعه ، والكتاب أول منارة أقيمت لهداية السارين فى غيابات ذلك العهد السحيق ، والمؤلف أول من كشف النقاب عن نشأة النثر الفنى فى اللغة العربية وقهر المستشرقين ومن لف لفهم ، وهكذا يمضى المؤلف فى تعداد أولياته وهى طريقة لاأستحسنها ولاأستسيغها ، وأظن ان كثيرا من القراء لايستحسنونها كذلك ولايستسيغونها ، فخير للمؤلف ان يتوارى وراء ماكتب ، ويدع الناس يحكمون له أو عليه لا أن يتقدم هو بالحكم لنفسه ، ويقطع الطريق على القراء والنقاد ، ويعجبنى فى ذلك مانقله المؤلف نفسه فى ثنايا الكتاب عن أبى هلال قال ، ومن صفات الشعر التى يختص بها دون غيره أن الانسان اذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة فى ذلك أو عمل خطبة فيه جاء فى غاية القباحة ، وان عمل فى ذلك أبياتا من الشعر احتمل ، نعم ان المؤلف لم يرتض هذا الرأى ، وأباح ذلك اذا جرى مجرى الدفاع والمفاخرة ، ولكن الكتاب ليس موضع دفاع ولا مفاخرة ، وانما هو موضع تقرير لحقائق يراها ويعرضها على القراء ، ثم هم قد يخالفونه فيها وقد يوافقون ، وقد يقدرونها تقديرا عاليا وقد لايقدرونها ، وعلى كل حال فلهم القول الفصل لا للمؤلف ، فمن من المؤلفين لم يعجبه ما ألف ولم يرقه ماكتب ، وانما كتب الخلود لما قدره الناس لا ما قدره المؤلف — شعر المؤلف بذلك وأراد أن يعتذر عنه ، بأنها ثورة نفسية ، أنطقه بها مارآه فى زمانه من غدر وعقوق ، ولكن هل هذا القول يداوى الجرح ويبرىء المرض ؟ أخشى أن يحمل الناس على الالحاح فى العقوق والامعان فى الغدر ، لأن النفس مولعة أبدا بكراهية الحديث عن النفس ، ومن طبيعتها أن يحملها امعان المادح فى مدح نفسه على امعانها فى التنكر له وجحد فضله ، بل أخشى أن يكون هذا بعينه هو السبب فى الغدر والعقوق ، فقد اعتادت النفوس أن تقابل الافراط بالافراط والغلو بالغلو .

ان يكن المؤلف قد خانه التوفيق فى المقدمة فقد صحبه الى درجة كبيرة فى الكتاب ، فهو نتيجة مجهود صادق وبحث طويل شاق ، أتى فيه بمقدمة فى الموازنة بين الشعر والنثر ، ثم تطور النثر من عصر النبوة الى القرن الرابع ، وتكلم فى نشأة النثر الفنى ، والسجع وأطواره ، وخصائص النثر فى ذلك العصر وأنواعه ، ثم أشهر الكتاب فى كل نوع ونماذج من كتابتهم ، وتحليل لآثارهم .

وطريقة بحثه فى كل مابحث سليمة ، جارية على الاسلوب الحديث فى العرض والنقد واستقصاء مافى الوسع فى الرجوع الى المصادر ومقارنة بعضها ببعض ، والشجاعة فى ابداء الرأى ، والقارىء قد يخالفه فى بعض ماقال ويرى رأيا غير مذهبه اليه ، ولكنه على كل حال يقدر ما بذل المؤلف فى تكوين رأيه وتأليف حججه . ثم هو قد وفق الى آراء جديدة له فضل الجد فى استكشافها ولفت النظر اليها ، وآراء صقلها وعرضها فى حلة جديدة . وانى ان احترمت الكتاب من الناحية العلمية والعقلية ، فأنى ناقده من جهة الذوق ، وذلك أن الدكتور زكى مبارك كلما رأيته أو استحضرت صورته ، أشع على معنى غريبا يصعب تصويره ، وربما كان أقرب تصويره له رجل

يمسك بيسراه كتابا قيما فيه علم غزير ، وأدب وفير ، وبيده اليمنى عصا أشهرها ، ثم هو يطلع الناس على ما فى كتابه من طرف فمن هم أن يفتح فاه بنقد أو مخالفة قنعه بما فى يمناه ، بل قد يؤمن الناظر بما يعرض عليه ، فلا يعجبه الاستسلام وهذا الايمان فلا يزال يهيجه حتى يبدأ بالمخالفة أو يظن أنه سيبدأ بالمخالفة فيشهر عليه العصا ، بل قد يكون السالك على علم بذلك فيتنحى عن كتابه وعن عصاه ويتخذ ناحية أخرى فيسرع الدكتور ليسد عليه المسلك ويأبى أن يفسح له الطريق حتى ينظر فى الكتاب ، فاذا نظر فالنتيجة محتمة ، واذا لم ينظر فالنتيجة هى هى أيضا ، وهى العصا

هذا ما كان يشعه على الدكتور زكى ، فلما قرأت كتابه النثر الفنى تأكد هذا المعنى وتجسم ، وما أدرى أقرأت الكتاب بهذه العين التى تكونت ، أو قرأته محايدا وقراءته زادت هذا المعنى وضوحا

تجلى هذا المعنى فى أنه يعرض آراء قيمة وافكارا عنى بدرسها ثم اذا به يظفر فيحتك بمؤلف أو كاتب فلا ينقده نقد عالم لعالم ولكن نقد مصارع لعالم . إن شئت فانظر اليه وهو يعرض لرأى الاستاذ مرسيه - أستاذه وشيخ المستشرقين فى فرنسا - اذ يقول « وهناك رأى منقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأى المسيو مرسيه ومن شايعه » ثم تقرأ رأى الاستاذ مرسيه ومن شايعه ، فاذا هو رأى جدير بالاحترام باعث على التفكير ، صالح لحسن التقدير ، وهبه كان رأيا سخيفا وفكرا تافها ، وقولا لا يؤبه له ، فليست هذه لغة العلماء فى النقد ، ولا طريقتهم فى الرد .

نعم قد يكون نقدهم فى بعض الأحيان لاذعا ، ولكنه - على كل حال - يصاغ بلباقة ، وقد جرى المؤلف على هذا السنن مع الاستاذ مرسيه وغيره مما لا شأن لنا بتفصيله ، ومما يزيد الأمر عجبا أنه شديد قاس فى بعض النقد — كما رأيت — ولطيف لبق فى البعض الآخر ، ولا ندرى من الناحية العلمية لم كان لطيفا لبقا هنا ، وقاسيا صارما هناك ، فقد قلبنا الأمر على وجوهه فلم نجد ذلك يرجع الى قوة رأى المخالف وضعفه ، ولا قوة الحجة وضعفها ، إلا أن يكون لشىء غير الرأى وغير العلم وهذا مالا أدريه .

كذلك آخذ عليه أشياء لم تتفق والذوق قرأتها فضربت أذنى واقبض منها خاطرى . مثال ذلك ما جاء فى صفحة ٩ و ١٣ و ذيل ص ٦٠ و ٦١ و ذيل ٦٥ الخ

ثم هندسة الكتاب لم تخل من نقد ولم يشع فيه التناسق ، فحجرة صغيرة وحجرة كبيرة ، بل وحجرة لم تكن كان يجب ان تكون ، وباب كبير وباب صغير ، وقد يكون هذا معقولا اذا دعاه الحال واقتضاه المقام ، ولكن لم يكن كذلك فى هذا الموقف ، فقد تحدث مثلا عن المقامات ونشأتها فأفاض وأنفق عن سعة ، ولم يحدثنا كثيرا عن رسائل اخوان الصفا ونشأتها . قد يتبادر الى الذهن أنه عنى بالمقامات لأنها ألصق بالأدب ، ولم يعن برسالة إخوان الصفا لأنها أدخل فى الفلسفة والعلم ، ولكنه فى الكتاب تعرض للاسلوب العلمى كما تعرض للاسلوب الأدبى . على ان فى رسائل إخوان الصفا نواحى أدبية عديدة أقربها المؤلف فاقتبس منها رسالة الانسان والحيوان ، وقد اعتذر عن ذلك بأن الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، وهو عذر لا نوافقه عليه بحال ، فمجال القول فى اخوان الصفا ذو سعة . والى الآن لم تبحث الرسائل بحثا وافيا ، ولم يقل فيها ما يشفى النفس ويثلج الصدر .

وفيما عدا ذلك فالكتاب قيم ، يقف القارىء على أشياء كانت دفينة ، وآراء نظمت كانت شتيتة ، ويلفت نظر الشباب الى جمال فى الأدب العربى كان قد عفى عليه الزمان ، ويعبر عن ذلك كله بلغة العصر فيقربه من نفوسهم ، ويحببه الى أذواقهم ، ويفتح أبوابا لبحث العلماء وتفكيرهم فله على ذلك الشكر .

المجمع المصرى للثقافة العلمية

المجمع المصرى جماعة من بعض خيرة أهل العلم غرضهم نشر الثقافة العلمية باللغة العربية فى الشعب المصرى . وهو يحيى من أجل هذا أسبوعا فى كل عام بالمحاضرات العامة يحضرها كل راغب بلا دعوة . وسيحيى أسبوع سنته الخامسة بمحاضرة واحدة تلقى فى الساعة السادسة ابتداء من يوم الجمعة ٦ أبريل بدار جمعية الحشرات الملكية بشارع الملكة نزلى (عند تقاطعه بشارع فؤاد) تبعا للبرنامج الآتى :—

المحاضرة الأولى : يوم الجمعة : وتبدأ بكلمة الرئيس الاسبق حضرة صاحب العزة أحمد محمد حسنين بك ثم يعقبها خطبة الرئيس الحاضر حضرة صاحب العزة حسين سرى بك وكيل وزارة الاشغال وموضوعها فى « الرى »

المحاضرة الثانية : يوم السبت : للدكتور أحمد زكى استاذ الكيمياء ووكيل كلية العلوم فى « الاحجار الكريمة »

المحاضرة الثالثة : يوم الاحد : للدكتور محمد سعيد نبيه فى « داء الكلب »

ثم تعطل المحاضرات يوم الاثنين من أجل عيد شم النسيم وتستأنف بعد ذلك